الفصل الثانى

نحو ثورة تعليمية شاملة

وإعادة بناء التعليم المصرى العام والجامعى

(١)

نحو ثورة تعليمية شاملة
لتجاوز أزمة التعليم فى مصر

أنا مؤمن بمقولة الفيلسوف الألمانى الشهير ايمانويل كانط «أن الإنسان هو نتاج التربية». كما أننى مؤمن كفلاسفة التربية العظام بأن الإنسان لا يكون إنسانا بداية إلا بالحرية، وأن هدف كل تربية تأتى بعد ذلك هى ترشيد وتطوير هذه الحرية، ومن هنا فإن الحرية يمكن أن تكون مرجعا نقيس عليه قيمة وجدوى والمعنى الحقيقى للتربية والتعليم. إن التربية والتعليم أساسهما وغايتهما انتاج مواطنين أحرار، وهما وسيلة لخلق النموذج الاجتماعى العادل والمتناغم الذى يستطيع كل فرد فيه أن يؤدى وظيفته باتقان وتجرد على حد تعبير أفلاطون أول وأعظم فلاسفة التربية. وثمة علاقة ضرورية بين التربية والسياسة حيث إن كليهما ينبغى أن يكون معنيا وواعيا بأن الغاية من التربية إنما هى رسم ملامح إنسان المستقبل ودوره فى بناء المجتمع الصالح والناهض دوما.

ومن هنا فإننى أرى أن ثمة فرقا كبيرا بين الحديث الدائر الآن والذى كان يدور من قبل حول إصلاح النظام التعليمى فى مصر، وبين مايحتاجه

فعلا النظام التعليمى فى مصر؛ فما نحتاجه إنما هو التغيير الشامل والجذرى للنظام ذاته بتغيير الفلسفة التى يقوم عليها. إن فلسفة التعليم التى نسير عليها منذ أيام محمد على وحتى الآن هى تخريج الكتبة والموظفون فى المقام الأول، العلماء والمفكرون المبدعون فى المقام الثانى، وعادة ما يخرج هذا النظام التعليمى هذا الصنف الأخير بالصدفة واستنادا على مواهب فطرية لدى المتعلم والعناية التى يلقاها من هذا المعلم أو ذاك أو من هذه البيئة العلمية أو تلك من الهيئات العلمية الأجنبية!! أما فلسفة التعليم التى نريدها الآن ففيها قلب للأولويات حيث نريده نظاما تعليميا يخرج العلماء والمبدعون المهرة الذين يستطيعون حمل لواء نهضة الأمة فى كل المجالات والذين يمكنهم المنافسة فى مجال العلم وسوق العمل العالميين. ومن ثم فنحن نريدها ثورة تعليمية شاملة ولا نريد اصلاحا هنا أوهناك فى هذه المرحلة التعليمية أو تلك أو فى هذه الفرقة الدراسية أو تلك، أو فى هذا النمط التعليمى أو ذاك. إننا نريدها ثورة تعليمية شاملة يدرك كل القائمين عليها معنى مقولة أ. روبول فيلسوف التربية الفرنسى المعاصر (١٩٢٥-١٩٩٢م) «أن مهمة الطفل هى أن يتعلم كيف يتعلم، وأنه حينما يقدر على ذلك يصير راشدا، يصير شخصا قادرا على التعلم الذاتى» و«أن أعظم المربين والمعلمين على الاطلاق هم من يقفون عند حدود البناء والتحضير» ولا يتعدون ذلك إلى حشو الأدمغة بالمعارف والمعلومات عن طريق الاملاء والتلقين. إننا نريدها ثورة تعليمية شاملة يدرك المعلم فيها ـ على حد تعبير جويرى ديلاكوت عالم الفيزياء والخبير التربوى المعاصر ـ أنه لم يعد ينهض بوظيفة «مزود» للمعارف والمعلومات، بل أصبحت وظيفته من الآن فصاعدا «قيادة» المتعلمين بشكل يكاد يصبح فيه أشبه بمحرك إدراكى فاعل وقادر على التوجيه والارشاد والتقييم والتفاعل الايجابى.

وأعتقد أن كل مصرى ـ فى ضوء ما ذكرت فيما سبق ـ أصبح يشعر الآن بعمق المأذق الذى يعانيه أى مسئول عن التعليم فى مصر نظرا لأن هذا المسئول أو ذاك عادة ما يكون مطلوبا منه الإصلاح وحل مشكلات التعليم بينما يعانده الواقع وتكبله التشريعات القائمة. وتكون النتيجة عادة أنه يكتفى بحل المشكلات الآنية مع الحرص على بعض التغييرات الشكلية سواء فى المناهج أو فى نظم الدراسة والامتحانات دون أن يكون لديه القدرة على الإصلاح الجذرى الشامل!! إن كل مصرى يجب أن يشعر الآن أن التعليم المصرى فى أزمة، والشعور بوجود الأزمة وادراك أبعادها هو بداية الطريق نحو وضع الحلول الجذرية وغير التقليدية وتقبلها من كل الفئات.

أما عناصر الأزمة فنحن كأفراد وكمجتمع نعيها ونستطيع أن نحدد الكثير منها؛ والحقيقة أن الأزمة ـ برغم كل الجهود المبذولة من جانب الدولة والحكومات المتعاقبة ـ تطال كل عناصر العملية التعليمية: المعلمون والمتعلمون والادارة التعليمية والمناهج الدراسية والأبنية التعليمية بكل مرافقها! فكل هذه العناصر بها جوانب متعددة من القصور ويشوبها الكثير من عوامل النقص وعدم القدرة على القيام بما يجب القيام به أيا كان دورها فى العملية التعليمية! ولذلك فنحن نشعر جميعا بأن خريجى نظامنا التعليمى ليسوا على المستوى المطلوب من التأهيل الذى يمكنهم من أداء المهنة أو الوظيفة التى يمكن أو ينبغى أن توكل لهم حسب مؤهلهم الدراسى.

ولعل هذا الشعور بالأزمة يجعلنا نتقبل ما يمكن أن يطرح من حلول الآن خاصة إذا كانت جذرية وحاسمة، كما أن شعور الجميع وخاصة إذا

كان هذا الشعور متغلغلا فى نفوس كل المواطنين من كل الطبقات يوفر الظهير الشعبى والارادة المجتمعية والمساندة الجماهيرية لأى اجراءات يكون من شأنها اخراجنا من هذه الأزمة وتضعنا على طريق الحل الشامل لها ومن ثم لا يبقى إلا أن تتوفر الإرادة السياسية لتتخذ القرارات الصعبة التى من شأنها أن تضعنا على طريق تحقيق الأهداف النبيلة التى سنتحول بمقتضاها من أمة خاملة مستسلمة لكل ماتعانى منه من أعراض ثقافة الجمود والتخلف إلى أمة أدركت الخطر وتصر على مقاومته والدخول إلى عصر جديد لا خوف فيه من مجهول ولا تردد فيه رغم كل الصعاب والمشكلات التى قد تواجهها من جراء هذا الاصرار على خوض غمار هذه الحرب الضروس حرب تحقيق التقدم والنهضة المنشودة.

وفى إطار هذا التغيير الشامل لمنظومتنا التعليمية برمتها ينبغى أن يتلقى التلاميذ فى كل المراحل وفى شتى صور التعليم العام والفنى مبادئ التفكير العلمى ومهارات التفكير العقلى وأن يتدربوا عليها وكم من مؤلفات علمية ورسائل جامعية تربوية أوضحت كيفية ذلك وبصورة متدرجة ربما تبدأ من مرحلة رياض الأطفال لكن لا شىء من هذه المؤلفات وتلك الرسائل الجامعية يجد طريقه إلى التنفيذ فى ظل القوانين واللوائح الدراسية المعمول بها حاليا، وقد آن أوان الاستفادة منها، فلا تظل على أرفف المكتبات، بل تصبح محط أنظار المنظرين والمنفذين فى كل مراحل التعليم . إن اكساب أطفالنا مهارات التفكير العقلى والعلمى وتدريبهم عليها هو ما يجعلهم قادرين بداية على التعلم النشط (أو التفاعلى) أو التعلم بالاكتشاف وهذه هى أحدث النظم التعليمية التى لاشك أنها ستكون هى حجر الزاوية فى طرق التدريس الحديثة التى

ستنفذها البرامج الدراسية الجديدة والمعلمون القائمون بالتدريس فى كل المراحل، وهى ما سيجعلهم قادرين على تحصيل المعارف العلمية بالطرق غير التقليدية البعيدة عن «احفظ ـ سمع ـ تذكر» التى يسير عليها نظامنا التعليمى العقيم حتى الآن وفى كل مراحل التعليم وتحويلها إلى «لاحظ ـ فكر ـ عبر» أو إلى «عرف ـ جسم ـ افهم ـ ابدع ـ ارغب» وهى الطرق التى من شأنها تخريج المتعلم المبدع القادر على الاضافة والابداع فى تخصصه أيا كان نوعه، والقادر على تحويل الابداع النظرى إلى ما يفيد الناس فى واقعهم العملى.

إن التربية والتعليم الذى ننشده لأبنائنا ينبغى أن يتم وفقا لأحدث النظم التربوية الجديدة التى لا تقبل من أشكال سلطة المعلم إلا سلطة الخبير، وهو ذلك المدرس الذى يملك ثروة من المعلومات والخبرات وله القدرة على تزويد التلاميذ بالتوضيحات التى يطلبونها كما يملك سلطة الحكم التى تتيح له القدرة على توجيههم وفق نظام وغايات محددة بموجب التعاقد التربوى، مع امكانية أن يشارك فى سلطة الحكم هذه نواب التلاميذ أو المنتخبون منهم أو مجالس الأقسام وهذه السلطة الأخيرة يلجأ إليها وقت الحاجة أو حينما يكون هناك خلاف أو تنازع أو صراع على تقييم أداء الطلاب ومشاريعهم فى الفصل الدراسى.

إن التعليم القائم على بناء منهج التفكير العقلى والعلمى لدى الطالب وتدريبه عليه وفى موازاة ذلك اكسابه لغة أجنبية واجادتها بالاضافة إلى اجادته اللغة العربية لغته القومية هو النظام التعليمى الأمثل الذى يتجنب الاعتماد على حشو أدمغة الطلاب بمعلومات تنسى حتما بعد حفظها وتذكرها وتسميعها.. الخ. إنه التعليم الذى يتيح للطالب

بناء معرفته العلمية من خلال البحث والقراءة المستقلة والحوار داخل الفصل وخارجه مع المعلم الذى ينبغى أن يتم تأهيله بنفس الطريقة وقياس قدراته وتنميتها بنفس المعايير.

ولكن السؤال الآن هو: كيف نحقق هذا النظام التعليمى الجديد داخل مدارسنا، ومن أين نبدأ هذه الثورة التعليمية؟! هل من أعادة تأهيل المدرسين أم من اعادة تخطيط المناهج التعليمية وتحديثها أم من اعادة تأهيل البنية الأساسية من مبان ومعامل وملاعب ومتاحف داخل المدارس؟!